عابر سبيل...

قصّة قصيرة

إسلام باكلي

"كلّ الحقوق محفوظة للكاتب تحت حماية الدّيوان الوطني لحماية حقوق المؤلفين"

إلـى أصحـاب الأثـر...

وما لعابري السّبيل إلّا الرحيل.

لم أخبر أحدا عن هذا قبلا، ربّما لأنّني كنتُ خائفة من النّاس أن تعرف حقيقتي المتجانفة، لكنّني لا أستطيع الصّمت بعد الآن، ولا أستطيع اخفاء من غيّر حياتي للأبد. وصلتني أخباره متأخرّة، لَمزوني بعيبه وتركوا فضله، فعلمت أنّه ليس على ما يرام.

إذا التقيتَ به يوما مصادفة فاعلِمه أنّه ليس مُجرّد بشر، ليس بالنّسبة لي، ليتذكّر من هو كي لا يتمكّن منه النسيان، ليدرك مكانه المنيف بقلبي رغم النّقص الّذي يشعر به وقلّة الجمال.

كنتُ أنثى بسنّ المراهقة أقدّس الشباب بهنات الأخلاق وألقّب الرَهق بشقاوة الصبا. ألقاب اتّخذتها أعذارا كي أبرّر تصرّفاتي أو عجزي عنها؛ فكم من مراهق صغير فتح مدينة، وكم من شيخ عجوز صلى الرّكعة الواحدة بالسبع الطوال.

أمّا أنا، كنتُ إن عرضوا عليّ ذنبا أحببته قلت أنّي كبيرة بما يكفي، وإن عرضوا عليّ نصحا اجتويتُه قلت أنّي صغيرة لم أعش شبابي ولم يحن وقتي؛ كنت إن وضعوا أمامي آية بحثت عن دعاة يحرّفون معناها بما تشتهي نفسي، وإن وضعوا أمامي حديثا بحثت عن دعاة كذّبوه كي أستمرّ بذنبي؛ كنت أستمع لدعاة شباب متزيّنين كاذبين غرّتهم معارفهم، وأتجاهل دعاة شيوخا ماتوا بحسن الخاتمة ساجدين مُبشّرين. كلّ شيء في عقولنا مدل بالباطل نزيّنه بطيبة النوايا الكاذبة.

كنتُ ضائعة؛ أستيقظ متأخرّة، وأخرج متبرّجة؛ مدحوني بتناسق جسدي منذ أن كنت قاصرة، وحين تكأكأ الذكور حول مفاتني ينفّذون أمري طواعية رسّمت نفسي ملكة؛ وكم صادقتني فتيات يتشبّهن بي فقط كي يحظين باهتمام أصحاب الفسولة حولي وبعض من الهدايا القيّمة؛ لم تكن هناك قاعدة تسري فوقي، وكان كلّ شيء يسير حسب أمري؛ أنهي حياة فتاة شريفة بإشاعة، وإذا تجرّأت احداهن على لمسي كنت أرسل خلفها بعضا من كلابي، وكم كانوا يحبّون لمزي إيّاهم بتلك الألقاب. كلّ نهار أرتدي هديّة فاخرة أتزيّن بها متفاخرة، وكلّ ليلة أجلس خلف شاشة هاتفي عارية أدفع ثمنها لصاحبها وأنا راضية، ثمّ أنام على أنغام الموسيقى كي أتجاهل صرخات تأنيب الضمير.

كم كنت جاهلة، أملأ وقتي بما يملأني بالفراغ، فكان هناك دوما جزء ممتدّ منّي يبتلعني ولا أستطيع ملأه، وحين كنت أقابل انعكاس عيناي على المرآة أمقت نفسي، لهذا كنت أتجنّب النظر إلى نافذتيّ روحي، وأشغل أنظاري بمفاتني المشدودة ومنحنياتي المنحوتة بإتقان.

كنت أحترق، وأحاول إطفاء الحريق بأشياء قابلة للاشتعال تزيد من لهيب النّار داخلي، حتّى ارتدّ الأمر عليّ وحوّلني إلى رماد، سوداويّة بظلام دامس، ولم يأخذ الأمر إلّا ثانية واحدة كي تنهار مملكتي حولي.

طلب منّي ذكر تعرّفت عليه بالبعد أن ألتقيه، كان يغدقني بالهدايا عبر البريد فأغدقه بوعود الحبّ بالمقابل، وها قد أتى كي يجمع دينه. كنت معجبة به، بخشونة معاملته لي، وصلابة قلبه نحوي؛ كانت تثيرني قصص مشاحناته، كم من ضعيف شوّهه بسكيّن، وكم من بريء طعنه بسكيّن؛ لم أكن أبالي بالعواقب فقد كانت تلك معنى الرجولة عندي، ولم أكن أبالي بمصيري لأنّني كنت مؤمنة بقصص الحبّ الساذجة؛ حين

يعاملني هو بخشونة، أكسره أنا ببكائي، أو هو الوحش وأنا جميلته المدلّلة، أرسم جسرا مزيّنا أمشي عليه بإرادتي فوق جرف هاو من العذاب.

حضر بسيارته يقلّني من أمام باب مدرستي وأنا أشعر بالتميّز متوهمة أنّ الهمسات خلفي هي كلمات غيرة وحقد تقف أمام بداية قصّة حبّ عظيم. لم ينتظر كثيرا بعد أن سأل عن حالي كي يبدأ في لمسي وتحسّسي بينما كان يقودني إلى مصير أعماني عنه غروري وكبريائي. أوقف سيارته أمام غابة مدينتي، وتوغّل بي داخلها يتحسّسني تارة ويصرخ بوجهي تارة أخرى حين أطلب منه أن يتوقّف؛ كان الخوف قد توغّل إلى قلبي من طريقة معاملته لي، لكنّني سددتّه بحبّي للمغامرة والأشياء الجديدة، قلت لنفسي أنّ هذا حبيبي وسأعطي حبيبي ما يرغب منّي، ثمّ ساورني الشكّ حين أدركت أنّه يعرف طريقه داخل الغابة رغم أنّه غريب عن مدينتي، أدركت متأخرة أنّها لم تكن أوّل مرة له هنا، ولم أكن أوّل فتاة له كما ادّعى، كما أنّني لم أكن صادقة معه بالكامل أيضا وكنت أعرف الغابة أكثر منه شجرة بشجرة.

وصل بي إلى سفح الجبل وقفز بي إلى داخل احدى فوّهاته السفلية، ثمّ بدأت معركتي الحقيقية حين بدأ بنزع ملابسي يتذوّق منّي ما اشتهى، وقد كنت مستسلمة على عهدي له، جلّ طلبي منه كان بعض اللطف وربّما بعض من علامات الحبّ كي لا أشعر أنّي مجرّد اشباعٍ لشهوة، لكنّه تقاذفني كدمية، دنّسني كبائعة هوى، شتمني كزانية، ولم يبلغ الرضا.

أراد أن يقطف زهرتي فرفضت رفضا قاطعا أن يقترب منها، غضب منّي وضربني ثم بدأ يحاول أخذها غصبا وأنا أترجّاه أن يفعل بي ما يشاء طالما لا يلمس عذريتي، لكنّه ضحك وصفعني، قال ما نفعها عندي إن كنت عاهرة بكلّ شكل من الأشكال؛ زادت خشونته معي وأنا أبكي لكن دموعي لم تنفذ إلى صلابة قلبه، فترجيته أن يتوقف ثم سألته باكية:

"هل كنت لترضى أن يُفعل هذا بأختك أو بأمّك؟"

نظرّ نحوي نظرة قاتل ثمّ دفعني على صخرة أسقطتني على ظهري؛ شتم أبي وأخوتي، ثمّ قال عن أمّي ما قاله عنّي؛ رفعني من على الأرض ونهاني عن وضع أخته أو أمّه على لساني فهما ليستا عاهرتين مثلي، ثمّ أخرج سكّينه ولوّحه قرب وجهي.

خلال ثانية واحدة وجدتني متمرغة على الأرض من جديد أحاول إيقاف الدماء السائلة من على وجهي؛ أبكي بحرقة من شدّة خوفي؛ كثير من الأفكار كانت تراودني، أحاول تحسّس مكان الجرح ومدى عمقه بوجهي، كيف سأفسّره لأهلي إن عفا عن حياتي، كيف سيتأثّر جمالي، اختنقت بالدموع والبكاء والصراخ، ولم يهتم أحد بأمري، كانوا كلّهم متفرّقين في باقي الحفر وخلف الشجر منشغلين بما كان يشغلني، بما ظننته حبّا.

رفعت وجهي نحوه ولعابي يسبق دمعي، فوجدته مبتسما حاملا هاتفه يصوّرني بحالتي، عارية باكية مشوّهة، ثمّ أقترب منّي وأخذ ما منعته منها رغما عنّي، ولم يكن أمامي سوى الندم، أترّجاه أن يأخذني للمستشفى وهو يبصق عليّ منشغلا بحاجته منّي، وحين انتهى بقي جنبي يصوّرني لدقائق كانت كساعات طوال؛ يصور بكائي، جسدي، نزيف وجهي وكميّته على الأرض تحتي، دماء عذريتي، كلّ هذا وهو يبتسم بنفس الابتسامة الّتي سحرتني، قطعني بنفس السكّين الّذي كان يثيرني، ويا ليته أنهى حياتي هناك.

تركني وذهب؛ تركني هناك أشعر بالقذارة والوسخ الّتي كنت جدّ ماهرة بإخفائها؛ لملمت شتات نفسي وارتديت ما تبقّى من ملابسي وأنا بنفس حالتي، بنفس بكائي وخوفي ونزيفي، أشعر بالأنظار حولي تراقبني وكلّما مررت على فتاة تداعب شابّا، أرى نفسي. هناك مثل للنجاح يقول "إذا تسكّعت حول محلّ الحلاقة لوقت كاف، عاجلا أم آجلا ستحصل على تسريحة شعر"، أظنّ أنّ المثل ينطبق لمن يبقى حول الكلاب لوقت كاف، سيتمّ عضّك عاجلا أم آجلا.

قطعت الغابة إلى غاية الطريق وحاولت إيقاف السيّارات المارّة لكنّهم رفضوا التوقّف لي، كان للمكان سمعته الخاصة كملاذ للزانين، السكارى والمجرمين؛ لم يكن ليقلّني أحد مهما كانت حالتي مثلا للرثاء.

حملت أقدامي راكضة حتّى قابلت سيارة دوريّة شرطة، وبصعوبة شرحت للشرطي ما حصل معي، كذبت وقلت أنّ أشخاصا اختطفوني ثمّ اعتدوا عليّ. أخذني للمستشفى واتّصلوا بأهلي، أخذوا افادة أكاذيبي كدليل، وأبقيت الحقيقة جمرة تحترق بصدري، لكنّ حبل الكذب قصير، والكابوس ما انتهى.

لم يمضي أسبوع أخفيت فيه وجهي المشوّه عن النّاس وعزلت نفسي ببيتي، قبل أن تزورني دورية شرطة تطلب حضوري بالمخفر؛ لم أرد الذهاب، أردت فقط أن أختفي، أردت أن أُنسى وكأنّني لم أولد يوما. انهارت مملكتي، واختفت حاشيتي وتلاشت صديقاتي، أردت أن أتلاشى مثل كلّ شيء آخر مزيّف كان مرتبط بي.

أخذوني لمقر الشرطة ودون تمهيد أروني صورا وفيديوهات انتشرت عبر الإنترنيت، نشر الحقير كلّ شيء صوّره عنّي، فضح نفسه وفضحني. طلبوا منّي الحقيقة ووافقت على مدّها لهم بشرط أن لا يُعلموا أهلي وإلّا لن يكون سقف فوقي يسترني، ذاك السقف الّذي كرهته يوما ونبذته للعراء كان الشيء الوحيد العزيز عليّ الآن. أخبرتهم بالحكاية، باسمه واصله وفصله وحتّى صوره، ولم تكن تلك النهاية.

مرّ يوم آخر قبل أن يردني اتّصال يطلب منّي الحضور من جديد، ولن أكذب، ارتديت نقابا كي يسترني، كي يخفي وجهي، قطعة القماش تلك الّتي سخرت منها واستهزأت بصاحباتها وقلت عنهن جاهلات متخلّفات، قطعة قماش أقسمت أنّني لن أرتديها مهما حييت وضعتها فقط كي تسترني من أقوال النّاس وتعرّفهم عليّ.

تقدّمت للمخفر خجلة من نفسي بإهانتي لنقاء النقاب وصاحباته وأنا أخفي وسخي خلفه؛ أخبروني من هو، وأخبروني أنّها ليست أوّل مرة ينشر فيها صورا لفتيات كنّ معه؛ سألوني إن كنت أريد رفع دعوى قضائية ضدّه، لكنهم أعلموني أنّه دوما ينجو من العقاب بما أنّه عامل في الجيش ووالده والي ولايته بكثير من الوسائط، ولم يكن الأمر سيسفر إلّا بفضيحة كذبي حين يخبرهم أنّني ذهبت معه طواعية وليس غصبا، وأنّني كنت على علاقة معه قبلا، خاصّة وأنّ لديه ألف صورة لّي حين كنت أرضيه خلف شاشة هاتفي؛ فتنازلت عن شكواي وعدت لغرفتي لأنام راجية أن أستيقظ وأنا رضيعة كي أكبر من جديد بطريقة صحيحة.

تركت دراستي فكلّ من بالمدرسة يعلم حقيقتي، وكنت لأشعر بالذلّ عائدة هناك بوجه مشوّه أو نقاب يعلمون أنّني لم أرد به الستر ولكن الخفاء؛ كرهت نفسي وشعرت بالضّيق يخنقني. لم أعد أخرج من بيتي إلّا لسطح العمارة كي استنشق هواء الحريّة الّذي كنت أستحقره قبلا؛ حزينة إلى أن صار الحزن همّي، وحيدة إلى أن صارت الوحدة أصواتا برأسي، تقترح عليّ مخارجا لم أفكّر بها قبلا، تقول لي "انتحري".

"انتظري...!"

كان ذاك صوته يباغتني من خلفي بعد أن كنت على أتّم الاستعداد للقفز من على سطح العمارة.

"ماذا تفعلين؟"

"ابتعد عنّي، لا تلمسني، ماذا تفعل هنا؟"

صرخت بوجهه كي يغادر، لكنّه اقتَربَ من الحافّة ونظر علوّنا الشّاهق بصمت كأنّ هناك على الرصيف ما جذب انظاره؛ وقف هناك في صمت لحظات كأنّه يستعيد ذكريات من ماضيه، ووقفت هناك ألعنه عن كسر تركيزي بعد أن كنت على تمام الاستعداد للرحيل؛ لم أكن أعرفه؛ بالتّأكيد لم يكن من سكّان هذه العمارة؛ كنت أعرف شبابها ورجالها.

"أنت لا تريدين فعل هذا!"

"وما دخلك أنت؟ ابتعد عنّي"

"صدّقيني، قد تأتيك شجاعة القفز، لكنّك في تلك المسافة ما بين السّماء والأرض، ستندمين!"

"هذه حياتي وأنّا حرّة بها، لا دخل لك بي، من أنت؟! وماذا تفعل هنا؟!"

"لقد أوصلت خالتي لبيت صديقتها في هذه العمارة؛ أنا هنا لأنَّ بيتها دوج، كثير من النسوة وكثير من الأطفال، لا أدري إن كان بيتا أو حضانة أطفال أو مستشفى مجانين، أرانب تتكاثر وفقط. هيّا، لا تكوني غبيّة، انزلي من هناك واتبعيني!"

قالها دون أن ينظر إليّ. قالها واستدار عائدا ناحية الدرج كأنّه متأكّد من أنّي سأتبعه دون اعتراض؛ وبالفعل فعلت، ولا أدري ما كان سببي؛ كنت على وشك الانتحار، فماذا الّذي سأخسره على كلّ حال؟ سطح العمارة لن يذهب لأيّ مكان.

تبعتهُ إلى أسفل السّلالم وصمتهُ يقتُلني؛ أراقبه يقفز بين الدرجات وكأنّه يلعب مع نفسه، وأنا أتساءل عن سنّه لأنّ لحيته كانت تخفي ملامح عمره، أسأل نفسي عن أيّ نوع من الأشخاص يهرب لبرد الشّتاء وغيثه من دفء منزل فيه قليل من الغوغاء.

حين اقتربنا من مخرج العمارة سألته...

"أين نذهب؟"

دون أن يستدير نحوي، أجاب:

"سنذهب لأريك أشياء تساعدك على تحمّل الحياة الّتي تحاولين الهرب منها، أشياء ستشتاقين إليها إن اخترت بعثرة أطراف جسدك على الرصيف"

ركض وفتح باب سيّارته لأركبَ فيها قبل أن أتبلّل أكثر، رآني متردّدة في الركوب فابتسم لي وقال:

"ما أسوأ شيء سيحصل؟ أقتلك وأريحك من ذنب الانتحار؟"

صعدت إلى السّيارة مدركة أنّ فعلي هذا هو ما أوصلني لحالتي هذه منذ البداية؛ لكن نظرة المارة إلى تشوّه وجهي وهمساتهم عنّي بعد أن تعرّفوا عليّ كانت كافية لتعزّز رغبتي بالموت، أردت الهرب فحسب. حينها أدركت أنّ هذا الشّاب جنبي لم يُعر اهتماما لندوب وجهي ولا لقصّتي إن كان يعرفها، كان جميلا منه أن يُشعرني بأنّي غير مختلفة؛ كان جميلا شعور أنّني طبيعيّة من جديد.

أراد أن يطمئنني فنزع معطفهُ وغطّاني به ثمّ وضع القرآن في مسجّلة السيّارة وقاد بصمت.

توقّف جنب مقهىً وذهب ليحضر كوبين كبيرين من القهوة الساخنة، ثمّ ساق من جديد حتّى وصلنا إلى ضريح بلدتنا، وهو مكانٌ عالٍ يطّل على المدينة بأكملها؛ أوقف السّيّارة ثمّ أعطاني كوب القهوة.

أمَالَ كرسيَّهُ للوراء وأخذ يرتشف من قهوته ببطء في سكون؛ يستمتع بمنظر المدينة وهي تُغتسل بغيث السماء؛ فعلت مثلهُ وانحنيت للخلف مبقية على معطفه يغطّيني، وأنا أراقب الغيوم السوداء، وأعدّ الثواني بين البرق والرعد، تخيفني السماء إذا قصفت وتريحني حين تجلجل؛ شعرت وكأنّني داخل فقاعة من السكون الدافئ وللحظة ما، لحظة صغيرة هناك، نسيت من أنا.

بقينا على تلك الحال لأكثر من نصف ساعة من الهدوء المطلق الخالي من دوج البشر، فقط الطبيعة؛ كدت أنسى ذلك الشعور، ذاك الشعور جعلني أدرك أنَّ أرض الله واسعة دون لؤم البشر، وأنَّ أفعالي هي ما جعلت الدُّنيا تضيق بي، وليس مكاني.

كنت أشعر بشيءٍ ما من المُطلق، كأنّني غير محدودة...غير متناهية، كأنّه يمكنني لأول مرّة منذ مدّة طويلة، أن أتنفس بحق.

منذُ أن نولد ونحن نركض كأنّنا في متاهة ما بين الدّراسة والعائلة والعمل؛ كلُّنا كنّا مشغولين بكلُّ هذا الكمّ من الفوضى حتّى نسينا أن نعلِّم أبنائنا حقيقة الحياة وسبب عيشنا، ونسينا أن نتوقّف من حين لآخر لنرى أين وصلنا ونتنفس قليلا كي نفكّر إن كنّا في السبيل الصحيح أم لا.

"هل أنت مستعدة؟"

سألني بينما شغّل محرك سيّارته.

"مستعدة لماذا؟"

"لجولة أخرى"

أومأت برأسي متقبّلة للفكرة، لكن لو لم أكن خجلة منه لطلبت منه أن نبقى هناك، في تلك اللّحظة للأبد. فانطلق بالسّيارة مبتسما؛ أنظر إليه متعجّبة، من بلاغته بالهدوء، من ثرائه بالبساطة؛ متعجّبة بما قدّمه لي بكوب قهوةٍ ساخنةٍ وغيث غزير.

طالت الجولة وقلَّت الانعطافات حتّى بلغنا خارج المدينة؛ توقَّف في منطقة خالية مفتوحة ثمَّ فتح الباب وترجّل من السيارة، أتى ناحية بابي وفتحه ينتظر منّي النزول؛ لا أنكر، ظننت أنّها نهايتي، سيغتصبني هو أيضا ثمّ سيقتلني، وحين فتح صندوق سيَّارته قلت بنفسي حسن بالتأكيد سيحتاج مجرفة ومعولا لحفر قبري ودفني، لكنّه أخرج معطفا طويلا وواسعا وطلب منّي أن أرتديه؛ أعدتُ له معطفه الّذي غطى به ساقي وارتديت المعطف الجديد الّذي ابتلعني كليّا بحجمه.

"اصرخي"

"ماذا؟!"

"اصرخي، لا أحد سيسمعك"

"لماذا أصرخ؟!"

"لتُخرجي كلَّ تلك المشاعر الّتي لا تستطيع الكلمات إخراجها"

"ماذا تقصد؟!"

"أنظري حولك، المكان فارغ، والغيث غزير، متى ستأتيك فرصة مثل هذه من جديد؟"

نظرت حولي لأرى ما يبدو أنّه الوحيد القادر على رؤيته، لكنّني أدركت معه من توقّفنا السابق أنَّ قيمة بعض الأشياء لا تُرى، بل تُستشعر فحسب على عكس الهدايا الّتي كانت تغدقني بالحبّ الزائف؛ فتحتُ يداي ورفعتُ رأسي للسّماء بعينينِ نصفِ مُغلقتين أحاول أن أرى بهما السماء؛ حينها شعرت بتلك الرّغبة الّتي كان يقصدها...تلك الرّغبة المكبوتة داخلي كحمم من البركان تكاد...

صرخت، صرخت بأعلى صوتي، ومع كلّ صيحة اندفعت منّي مشاعرٌ أكبرُ حّتى وجدتُ نفسي أبكي.

سقطت أرضا على ركبتاي أحاول الصّراخ مرّة أخرى، ولكنَّ البكاء منعني في كلّ مرّة؛ لم أكن أريد الموت هناك، أردت عودة حياتي؛ لم أكن أريد الانتحار، أردت الفرار؛ لم أكن حزينة على عذرية خسرتها حين قتلت حيائي؛ لم أكن أريد عقاب الجاني على تلويثه لسمعتي، بل على تشويهه لجمالي؛ هناك تحت الودق، رأيت حقيقتي حين غسلني المطر، لم أكن نادمة، فقط خجلة متأسّفة على حالي؛ كنت أريد بداية جديدة، صفحة بيضاء، كنت أريد أن أَنسى وليس أن أُنسى.

كان يقف في سكون يراقبني، يخبرني بصمته أنَّ هذا شيءٌ يجب عليَّ أن أتعامل معه وحدي؛ صرختُ واستصرختُ، ثمّ بكيت من جديد؛ شعرتُ بغضب شديد من نفسي تبعه خوف عظيم عليها وكأنّني على أبواب الجحيم وأنا دُون توبة، دون محصول.

تعبت بشدّة، لدرجة أنّني حملتُ جسدي وركبت سيّارته بصمت؛ ركب معي صامتا يتفهم موقفي.

"لماذا أحضرتني هنا؟"

"كي أريك"

"تُريني ماذا؟!"

"أنّ الحياة أكبر بكثير من مجرّد مشاكل دُنيوية أو عائلية أو نَفسية وأصغر بكثير كي نضيع فيها أو نَعلق في لحظات مؤلمة منها في الماضي"

"أنت لا تفهم..."

"طبعا أفعل، أنا أعرف قصّتك، لكن هل تظنّين أنّك الوحيدة الّتي وقفتْ على تلك الحافة متقبّلة للنهاية؟! هل تظنّين أنّك الوحيدة الّتي كرهت نفسها بشدّة لدرجة محاولة عقابها؟ كنت أكره نفسي بشدَّة لدرجة أنّني كنت أتقيّأ كلَّما رأيت انعكاس صورتي في المرآة، كنت أجوّع نفسي عمدا لأيّام فقط كي أعذّبني، ادمنت المخدرات فقط كي لا أواجه مشاعري."

"ما الّي تحاول قوله؟"

"ما أحاول قوله هو أنّ الحياة ليست مال، ولا راحة بال، ولا ضيق حال، ولا همًّا طال، ولا موت خال، ولا شخصا ما قال، ولا شهواتٍ تُسيطر على قلب ضال...الحياة ليست كلّ هذا، وأكبر من هذا. الحياة هي الوقوف في وجه كلّ هذا؛ الحياة جميلة حين ندرك جمال بساطتها، الحياة أوضح حين ندرك غايتها"

"الأمور ليست بتلك السهولة"

قلت له ظنّا منه أنّه سيخالفني، لكنّه أجاب:

"لا، إنها صعبة جدّا، لكنّها ليس مستحيلة لمن أبصروا ولو قليلا من حقيقتها؛ أعلم أنَّ كلامي صعب فهمه، حين كنت أحاول أذيّة نفسي بالمخدّرات أصبت بقصور تنفسّي شديد، لحظة أكون بخير، ولحظة أخرى ينغلق صدري والتنفّس يصبح مؤلما بمثابة شوكة حادة تمرّ داخل أوردة صدري وقلبي، وحين تنتهي نوبة الضيق ويعود تنفسي كما كان، أشعر براحة شديدة تجعلني سعيدا رغم وضعي، رغم ماضيّ، رغم مظهري، رغم كلّ آلامي النفسية، التنفس بتلك البساطة والراحة جعلني أسعد أكثر من أيّ شيء آخر قيّم ملكته؛ حينها أدركت أنّ السعادة لحظات بسيطة نلتقطها بصعوبة إن كنّا مشغولين بأشياء أخرى تبدو أكثر ترفا بمظاهرها المزيّنة الخادعة؛ هل تظنّين أنّ شخصا يعتقد أنّ سعادته في المال قد أدرك سعادته من هذا الغيث؟ هل تظنّين أنّ شابا مطاردا للفتيات قد توقّف للحظة مثل هذه يغتنمها؟ لا، بل كان ليحتمي من المطر يلعنه لأنّه أفسد موعده؛ ما نفع كلّ تلك السنين الّتي عشتها؟ ما نفع كلّ تلك الأخطاء الّتي ارتكبتها؟ ما نفع كلّ تلك الجراح الّتي تحملتها؟ ما نفع كلّ تلك الهموم الّتي حَمَلتِها؟ ما نفع كلّ تلك المخاوف الّتي واجهتها؟ ما نفع كلّ ذلك إن لم تتعلّمي منها أنّك بالطريق الخطأ للسعادة؛ ما نفع آلامك وجراحك إن لم تصنعي شيئا أفضل منها كعنوان للنجاح، للسعادة؟ ما نفع كلّ ذلك إن كنت ستنهينها بخطوة واحدة أخيرة من السطح؟ ما نفع الحياة إن لم نعشها؟!"

صمْتي جعلهُ يشغِّل محرك السّيارة وانطلق بها عائدا إلى المدينة؛ في ذلك الوقت، كان عقلي مشوّشا كثيرا؛ صوت يخبرني أن أتجاهله لأنّه لا يتفهّم موقفي؛ وصوت آخر يخبر صوتي هذا بأنّه يتفهّم تماما لكنّني

ضعيفة فقط كي أحاول. لم أفهم أنّه لم يكن يحاول جعلي ابكي أو أنهار، بل كان يحاول أن يطهّرني، فلو لم تكن حياتي مليئة بالدرن لما بكيت في لحظة جميلة نقية تحت غيث الله؛ كان يحاول أن يعلّمني أنّ هذه اللحظات القصيرة، هذه التفاصيل النّقية الصّغيرة، سواءً كانت ارتشاف كوب قهوة ساخن في جوّ بارد هادئ، أو التبلّل بنعمة الله، هي ما يجعل الحياة مُحتَملة؛ هي ما يجعلها قابلة للحياة وتستحق القتال لأجلها؛ كان يعلّمني أنَّ السعادة ليست من صنع البشر، جمال الملابس ومفاتن المظاهر، الموسيقى والهواتف والعلاقات الدرنة، هي سعادة مزيّفة تزيد من ضيق أنفسنا وفراغ قلوبنا تُشغلنا بها إلى أن تنسلّ منّا لحظات البساطة الّتي فيها سعادة؛ كان يحاول أن يخبرني كيف أصلح حالي حتّى تصبح تلك اللحظات القصيرة النّقية راحةً لي وسعادة، طهارة وجمالا، لا بكاء فيها ولا خوف، لا شياطين جنّ ولا شياطين انس. كان صعبا عليّ الفهم، لكنّني في نهاية المطاف أدركت درسي، السّعادة لا تحتاج الكثير، تحتاج فقط أن نواجه حقيقتنا، وندرك غايتنا، ونجدد ثقتنا بالله.

"كيف تعرف كلّ هذا؟"

سألته بصوت انس دون أن أبعد عيناي عن نافذة مقعدي؛ شعرت بنظرته إليّ ونصف ابتسامته تُشرق وجهي.

"...لأنّني كنت مثلك في الماضي، بل أسوأ؛ لقد كنت أسوأ...لقد كنت في الحضيض"

"وهل هناك حضيض أكثر من محاولة الانتحار؟!"

"نعم...أخذ تلك الخطوة الأخيرة الّتي تراجعتِ أنت عنها، قضيت في المستشفى ستّة أشهر وحيدا لم يزرني فيها أيّ من معارفي الّذين ظننتهم أصدقائي، وحين فكّرت بهم وجدت أنّ نصفهم هم من أضلّوني وتمتعوا بي ونصفهم الأخر أضللتهم أنا بضلالي واستغللتهم لمصلحتي؛ لم أكن أملك شيئًا؛ كنت مفلسا لدرجة أنّني لم أعد أملك نفسي، فسرقت أنفس الآخرين وأضعتهم في سبيل لا يقود سوى للجحيم"

"وكيف تغيرت؟!"

"بدأت بالصّلاة؛ شعرت بالضّيق ذات ليلة عندما زارني الأرق بعد خروجي من المستشفى كأنّه مُشتاق لصُحبتي، ضاقت عليَّ الأرض وانعقدت الأفكار بعقلي، فلم أستطع السّكون بجسدي ولا الصّراخ بفمي؛ أصبحت كالمجنون أهرول ذهابا وإيابا بين زوايا غرفتي ضاقت بي حالتي وكلّ ما رغبت به هو البكاء لشخص ما، هو أن أُسمع من قِبل أحد ما، لكنّني كنت وحيدا وليس بقائمة اتّصالاتي شخص واحد استطيع ازعاجه في ذاك الوقت، لم يكن هناك شخص بقائمة اتصالاتي أصلا، إلى أن سمعت آذان الفجر، وتغلغل إلى قلب وحدتي بطريقة لم يفعلها قبلا حين كنت غلظ القلب، أردت أن أدعو الله بما أنّه الأقرب لي لكنّني أحسست بالأنانية أن أرفع يديّ لله فقط عندما أحتاجه؛ لم أشعر بأنّني طاهر بما فيه الكفاية للدعاء، فدخلت للحمّام واغتسلت بالوضوء الأكبر وأردت قربا أكثر لله من الدعاء، ولم أجد غير الدعاء بالسجود، لكنّ غرفتي كانت تحمل من شياطيني ونجاستي ما يكفي كي أنفر بالصلاة فيها، فتوجّه قلبي لبيت الله، وخلال دقائق قليلة وجدت نفسي على باب المسجد؛ وانهرت ساجدا مخرجا كلّ ما بصدري من حاجة وكلّ ما بعيني من دمعة؛ لم يكن بالمسجد ذاك الوقت إلّا خمسة رجال اقتربوا منّي بعد أن تعالت أصوات ألمي، ظنّا أنّ لي حاجة يستطيعون

قضاءها، وقد كانوا أصدقاء لي منذ تلك اللحظة أكثر من أيّ صديق عرفته قبل ذلك، أحدهم يتّصل بي ليعرف سبب غيابي وآخر عن حالي وأخر يشتري قليلا من الفاكهة ويضع نصفها على عتبة بابي كي يذكّرني أنّه لم ينساني ولم أغب عن باله حين غبت عن عينه؛ كانوا لا يدعونني أتخلّف عن صلاة ولا أقترب من مخدرّات، كانوا نعم الصحبة ونعم النصح حين أردت التّكفير عن ماضيّ..."

استمرّ بالحديث مسترسلا؛ كيف كان وكيف تغيّر وكيف أصبح؛ لم ألاحظ من قبل جمال عيونه، براءة ملامحه، شعره كان قصيرا خلاف لحيته، وأنفه كبير مقارنة بوجهه؛ لكن شيء ما كان مختلف عليه، شيء كان يميّزه، يغطّيه، كنور نيّر يجعلك ترتاح له، كهالة بيضاء تحيط هيكله، كان يرتجف كثيرا ويتكلّم بسرعة، لا أدري بردا أو حماسة أو علّة، شديد الحذر في القيادة.

حملت من كلامه الكثير من الإرشاد، وأكثر من الإعجاب حين قابل النّاس بابتسامته رغم مقابلتهم له بروغهم، في حين اخترت الاختباء خوفا من المواجهة؛ كيف حوّل مضضه إلى سبب لقلب حياته رأسا على عقب في حين جعلت ألمي عذرا للاستسلام. لم يكن التغيير سهلا له؛ لم يحدث خلال ليلة وضحاها، بل بعد صراع طويل مع نفسه، كبوة تعقبها توبة، وخطأ يعقبه استغفار. حياته القديمة لم تتركه وشأنه، ومعارفه القدامى وقفوا أمام وجهه، كلّما نصحهم ناوئوه، وكلّما أصلح من نفسه لمزوه؛ حين تاب كذّبوه، قالوا عنه منافق بصلاته، بسنّته ولو كانت بشعيرات لحيته؛ وصل بهم الأمر إلى قطع طريقه وافتعال المشاكل معه، فإن مرّ جنبهم قابلوا سلامه بشتيمة، يحاولون استفزاز حبّه الجديد لله بسب الذّات الإلهيّة، فإن استغفر من تطاولهم بصوت مسموع ضربوه مذكّرين إيّاه أنّ لا حقّ له بالاستغفار وصفحات ماضيه الممزقة معهم، منصوبة نصب أعينهم، محفوظة كحفظ الطّالب لعلمه؛ وإن فرّ إلى منزله ينعزل بعبادة ربّه يتجمّعون تحت شرفة بيته ويشغّلون الغناء ويرقصون على ألحانه صارخين باسمه؛ أصحاب فسولة قال عنهم المجتمع رجال.

علمت أنّ طريقي لن تكون يسيرة، لكن ممّا يبدو تستحق التعب؛ حديثه جعلني أكثر سعادة فقط بسماعه، وكنت جدّ متحمّسة لتجربته؛ لم أرد سوى العودة للبيت لغسل نفسي بالوضوء الأكبر وقلب صفحة بيضاء من جديد. لم تكن في لائحة أفعاله أشياء صعبة أو غالية الثمن أو تتطلّب أكثر ممّا أستطيع أن أقدّم، لا أدري لم كانت التوبة صعبة لي قبلا. كلّ شيء كان يفعله بسيطا لكن بمنتهى الجمال، كإماطة الأذى عن الطريق أو فتح باب لغريب أو إهداء رسالة قلميّة لصديق، أو تسبيح الله ومراقبة المغيب.

لم يبقى لي سوى المحاولة، ولا عذر لي الآن.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ: أَخَذ رسولُ الله ﷺ بِمَنْكِبِي فقال: "كُنْ في الدُّنْيا كأَنَّكَ غريبٌ، أَوْ عَابِرُ سبيلٍ"

يا عابر السّبيل، يُحزنني ألّا أستطيع ذكر اسم قلبك الغائب ليعرفك كلّ متشبّه بالرّجال؛ عابر سبيلٍ هو ما كنت عليه لي، وهو ما نحن عليه جميعا لا يفرّق بيننا إلّا الأثر كما علمتني، إلّا أنّك نفسك رحلت سريعا وتركت آخر عباراتك ترسم عليّ ابتسامة كلّما تذكّرتها:

"يا حمقاء، هل أنت مجنونة لتصعدي في سيّارة غريب مثلي؟"

يا عابر السّبيل حَمَلَتِ الرُؤى أخبارك لي فرأيت أنّك تغرق في بحرٍ أسود على مرأى منّي...

يا عابر السّبيل علَّمتني أن أعشق الليل لعُلا الدّعاء فيه بسكونه...

يا عابر سبيلي علّمتني أن أصّلي الفجر في وقته وأطيل مِن سجودي...

علّمتني أن أستشعر وسط النهار بالذِّكر، وأن أستشعر بظلمة الليل حلاوة فجر جديد...

علّمتني أن أقرأ القرآن وأتأمّل شروق الشمس ليرتاح بالي بإبداع المجيد...

يا عابر السّبيل علّمتني أن أضع القرآن في أذني بدل الغناء فتطمئنّ ضربات قلبي، ويقلّ انشغالي بمن حولي...

علّمتني أن أصلّي صلاة الضّحى، صلاة الأوّابين، ولو كنتُ بغير بيتي...

علّمتني ألّا أُحرج من عبادة ربّي وستر نفسي، وألّا أتأثّر بألقاب النّاس لي...

يا عابر السّبيل علّمتني أن أنظّف عمارتي عوض أن تنظّفها امرأة في سنّ أمّي، أو شيخا بمثل عمر أبي...

علّمتني أن أشتري فطورا لمتسوّلٍ عوض أن أنفقَ مالي على رصيد هاتفي كي أنصت إلى من يدّعون صداقتي باغتياب غيري...

علّمتني أن أقوم بالخير في وقت فراغي لأَسعَد به وأُسعِد به وأبقَى بذلك الخير في قلوبهم وعلى لسان دعواتهم طيلة حياتهم وإن متُّ أنا قبلهم...

يا عابر السّبيل علّمتني أن أعود للمنزل كل يوم محمّلة بابتسامة أقابل بها أهلي رغم ظروفي...

علّمتني أنّ بضع قطع حلوى بسيطة لأمّي وأبي واخوتي تدّل على أنّهم لم يغيبوا من بالي...
علّمتني أن أتصدّق لهم خفية عنهم ليدركوا مدى حبّي لهم بعد رحيلهم...

يا عابر السّبيل علّمتني أن أُغيّر النّاس ومن حولي بصمتي، بتغيير نفسي، كي أكون قدوة لغيري...

علّمتني أن أقرأ القرآن وأستخير الله كلّما احتجت نصيحة تريح بالي...

يا عابر سبيلي علّمتني أنَّ بالذّكر تعلو مكانتي ودرجتي وتُفرج همومي...

علّمتني أن أقرأ كتبا ترتقي بي عوض كتب تبتغي تمرّدي...

يا عابر سبيلي علّمتني أنَّ الملابس الضيّقة والكاشفة تؤذيني في ضيقة صدري وضيقة قبري وتؤذي من صَعُبَ عليه غضّ بصره من إخوتي...

يا عابر السّبيل ذكّرتني أنّنا في النّهاية جميعا إخوة مسلمون، ولكنّنا في الطّريق في مكان ما، نسينا ذلك...

يا عابر السّبيل علّمتني أن أجعل لنفسي بصمة أينما كنت ولو كانت بورقة مطبوعة علقتّها سرّا في بحائط شارعي عليها ذكر الرحمان...

علّمتني أن أقرأ ولو حزبا من القرآن، علّمتني فائدة سورة الملك قبل النوم وسورة الدّخان...

يا عابر السّبيل علّمتني أن أختار صديقات يردنني للأحسن، أخيط الملابس معهن ونجمع المال والغذاء للمحتاجين...

علّمتني أن أعيش الحياة بتفاصيلها البسيطة وألا أبكي إلّا على ذنب أذنبته، أو قلب جرحته...

علّمتني أنَّ الشيطان حين ييأس منّي، سيرسل من جنده الضّعفاء من يُريد افسادي بحبّه...

علّمتني أن أكون ملاكا بماض مظلم لا أجاهر به كي لا يعلمه أحد غيري...

يا عابر السّبيل علّمتني أنّني لن أضيع ما دام القرآن لا يضيع منّي، وسنّة الرّسول عليه الصلاة والسلام قدوتي...

يا عابر السّبيل علّمتني أن أنظّف نفسي وأعيد ترتيب غرفتي وتنظيم حياتي...

يا عابر السّبيل أُبلغك سلامي وسعادتي بأيّامي وما بعدها؛ جاء أخ صديقتي يطلب الحلال طارقا بابي وتزوّجته، وحظيت معه بثمرة حلال اسمّيته على اسمك، ونعم الأسماء اسمك...

يا عابر السّبيل لو يوما ما بطريقة ما تصلك كلماتي، أريدك أن تعرف كم غيّرتني، أيّامي وحياتي...

يا عابر السبّيل علّمتني أن أحبّ الحياة، والأهم كيف احبّ نفسي.

يا عابر السّبيل أنت مخلّد لن تموت بقلبي، بارك الله في اختلافك

وشكرا على إثارة غيرة زوجي.

- متوفّر لنفس الكاتب -

- رواية: " كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرْ "

- رواية: " فَلْسَفَةِ حَيَاةْ "

- قصّة: "إلى نفسي الرّاحلة من صديق غائب"

- نبذة عن رواية كلّ شيء بقدر -

هي رواية اجتماعيّة محترمة ذات طابع ديني جميل وبسيط ولائق: تتحدّث بين صفحاتها عن حياة شابّين، فتى وفتاة، بحيثُ تجد في كلّ فصل مقطعين من السّرد، أوّلهما بلسان الشّاب، وثانيهما بلسان الفتاة.

يبدأ الشّاب بعد تخرّجه رحلة البحث عن عمل كي يعيل من عاشوا لأجله ويوفّر لهم متطلّبات الحياة والعلاج، لكن كُتب على صُحُف الأقدار أن يخسر أعزّ ما يملكه، ممّا جعله يفقد الرّغبة بالحياة، ويطغى على قلبه شعور الوحدة والفراغ؛ لا شيء بعد للدنيّا قد تعرضه له، ولا سبب فيه؛ خضم صراعه هذا يهزّ رحاله ويهرب من منزله نحو المجهول، تاركا خلفه ذكرياته، وجزاء أعماله الّتي لن تذهب سُدى ولا غير مذكورة، ستكتشفونها خلال مطالعتكم لها.

قرّرت الشّابة أن تعزل نفسها داخل غُرفتها بعيدا عن العالم القاسي والمتوحش الّذي سار بغريزة الحيوان بدل فطرة الإنسان، بعيدا عن بشر تخلّوا عما كان يمسكهم عن أذى غيرهم، وآذوها بالحكم عليها بالزّنا، بعد أن حَمَلَت بحمل غير شرعي وأنجبت منه فتاة صغيرة، أسمتها...قدر.

بعزلتها هذه، وخوفها من أعين النّاس وألسنتهم، تركت لوالدها، الشّيخ العجوز، همّ التّفكير بمستقبلها ومستقبل حفيدته، ومن سيعيلهما ويعيل زوجته بعده.

نبذة عن رواية فلسفة حياة

هي رواية اجتماعيّة لكلٍّ من يشعر بالّوحدة، بالضّياع، بالحيرة؛ لكلّ واحد منّا يخاف خسارة من يحبّ تحت راية سنّة الحياة؛ لكلّ من ظُلم ويبحث عن العدل والمساواة؛ لكلّ من طُعن من أقرب النّاس إلى قلبه ومن خانه مع عدوّه؛ لكلّ من أخطأ ويريد الصلاح والبعد عن الذّنب، لكلّ من قلبه على بعد دمعة من الجفاف، ورجّة من السّقوط على حافّة صدره؛ لكلّ طالبٍ للراحة وإن كانت بالرّحيل؛ لكلّ صاحب بلاء، صاحب همّ؛ لكلّ فاعل خير؛ لكلّ طفل ومراهق وشابّ وكهل وشيخ، لكلّ طفلة ومراهقة وشابّة وامرأة وعجوز؛ لكلّ روح ضائعة تبحث عمّن ينير الطريق.

الرّواية تحتوي على قصّتين، "شبح الوداع" و "غرباء وصلهم القدر"؛ كلا القصّتين مترابطتين من بعيد، ولولا ذنب الأولى لما كان عفوٌ في الثّانية.

"شبح الوداع"، تتحدّث عن فتاة رحل عنها نصف قلبها، فكبرت في خوف من خسارة النّصف الثّاني؛ فبدأت في الابتعاد عن الحبّ، عمّن تحب، وتدفع بعيدا كلّ من يقترب، مُحاولة أن تنسي نفسها في حتميّة القدر، في كلّ ملذّة تُذهِب العقل وتُنسيه، علّها تستطيع الهرب من أفكاره وذكرياته المحفورة داخله...حتّى ضاعت، وأجزم أن أقول إلى الأبد.

"غرباء وصلهم القدر"، جمعت حياة مجموعة من الغرباء، لم تكن لتلتقي لولا تفصيل صاحب القصّة الأولى، فيتحوّل أولئك الغرباء، فمن كان قريبا يُصبح غريبا، ومن كان غريبا يُصبح قريبا، ومن كان ميّتا يعيش، ومن كان حيّا يموت؛ تُعطي لفاقد الأمل شمعة، ولمُعطي يدٍ سمعة، ولقاطعها دمعة، ولواصلها فرحة.

الرواية تحتوي على الكثير من الدروس والعبر، لكن كلّ قارئ سيكتشف منها بحسب ما ستصله الرّواية داخل جواجي قلبه، فقد يكتشف قارئ عبرة، وآخر عشرة.

الرّواية متوفّرة إلكترونيّا وورقيّا، عبر مواقع محرّك قوقل، أو تطبيق البلاي ستور، أو عن طريق التّواصل مع الكاتب عبر وسائل التّواصل الاجتماعي المذكورة أدناه.

للمزيد من الروايات، الخواطر، الاقتباسات

*** Facebook : Islam Bakli - إسلام باكلي** **Facebook.com/islambaklii**

*** Instagram : Islam Bakli - إسلام باكلي** **Instagram.com/islambakli**

*** Wattpad: Islam Bakli** **Wattpad.com/islambakli**

*** Goodreads: Islam Bakli** **Goodreads.com/islambakli**

*** Youtube: Islam Bakli**

صفحة بيضاء، صفحتك إن أردت